هل يُمكن أن يكون (وباء كورونا) جندياً من جنود الله؟!

طالعتُ مقالاً لأحد الدكاترة الفضلاء ينفي إمكانية أن يكون وباء (كورونا) جندياً من جنود الله، ويقول أنّ كورونا رجس وعذاب وابتلاء فقط؛ ولا يصح أن يوصف بأنّه جندي من جنود الله، وأرى أنّه وقف عند ظاهر اللفظ وبقي على السطح ولم ينزل للمعنى المقصود.

ولا أجدُ ما يمنع أن يكون الوباء بل المرض جندياً من جنود الله؛ فالله عزّ وجل يقول: { ولله جنود السماوات والأرض} فلا يعلم عددهم وكثرتهم إلا الله عزّ وجل، وجند الله يشمل الملائكة وغيرهم من مخلوقاته العديدة كما بيّنه القرطبي والشوكاني وكثيرٌ من المفسّرين.

وجنود الله مختلفة الأنواع وليست نوعاً واحداً، ومن يُرسله الله للبشر؛ منهم جنود رحمة، وجنود عذاب، ولن يكونوا إلا خيراً للمؤمنين، وضراً للمجرمين والكافرين.

وفي آية: { وما يعلم جنود ربك إلا هو} دلالة تخويف وتهديد لمن طغى وأعرض واستكبر؛ ولو أراد الله تعالى إهلاك الكفرة والمنافقين والمجرمين لأهلكهم عن بكرة أبيهم لكن يؤخرهم لغاية وحكمة.

أمامنا كذلك آيتان فيهما فرقان ظاهران:

الأولى: قوله تعالى: {ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما}.

والثانية: قوله تعالى:{ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما}.

ففي الأولى يُناسب ذلك أن تكون جنود رحمة لأنّ الله بالمؤمنين رحيم.

وفي الثانية يُناسب أن تكون جنود عذاب لأنّه عزّ فعلِم فحكم.

وقد أخبر تعالى أنّه أرسل على عصاة وعتاة بني إسرائيل المستكبرين بعض الآيات والعلامات، وهي في الحقيقة من جنوده التي يُسلّطها على أهل الكفر والجحود فقد قال تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ }.

وقد فصّل تعالى سبب ذلك في آية أخرى وذكر أنّهم ظلموا وبدّلوا وغيّروا قول الله الذي قيل لهم؛ فأرسل عليهم ذلك حيث قال: { فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ} والرجز؛ المراد به هنا هو العذاب.

وعلى إثْرِ ذلك أقول بالنسبة لوباء كورونا ، ليس فيه ما يمنع أن يكون جنداً من جند الله؛ لأمور:

1. دعوى أنّه لا يصح وصفُ شيءٍ من جند الله لأنّه {وما يعلم جنود ربك إلا هو} وأنّ هذا يدل على أننا لا نعلم من هم جنود الله.

   فأقول: هذا غير دقيق؛ لأنّ جنود الله كُثر، ولا حصر لهم ولا عد، ومنها ما نعلمه ومنها ما لا نعلمه، وسياق الآية وأسلوبها لا نفي فيها لبعض ما أرسله الله من آيات وعلامات بأنها جند من جنود الله، بل سياق الآية يدل على أن جنوده كثر لا يحصرهم حاصر ولا يعدهم عاد ولا يخطرون للناس على بال.

2. جند الله صفة تشريف، لكنها نسبة تشريف بكونها من مخلوقات الله، وبعض مخلوقاته شريفة بذاتها كحال الملائكة، وبعضها ليس شريفاً بذاته بل لما يؤديه من مهمّة يُريدها الله.

   فالبشر عباد الله، فمنهم الصالحون ومنهم الظالمون والفجرة والكفرة.

   والملائكة منها ملائكة رحمة وملائكة عذاب، والملك هو رسول من رُسل الله يُرسله إلى من يشاء من خلقه، وهم عباد الله المكرمون، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

والريح هو من روح الله وهي جند من جند الله، ونصرت المؤمنين في غزوة الأحزاب، وقُرنت مع الملائكة كما قال تعالى : { فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها} وكانت تلك الريح عذاباً على الكافرين، ورحمة للمؤمنين، فقد نُصر رسول الله بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور.

وبعض ما أرسله الله على الخلق من آيات وعلامات منه ما هو شريف بذاته ومنه ما ليس كذلك كالطوفان والضفادع والقمل والدم.

وكذلك الطاعون كان بداية رجز على بني إسرائيل ثم صار رحمة للمؤمنين، بل من قضى منهم نحبه بالوفاة بسببه عُدّ شهيداً.

3. قول بعضهم أن جند الله لا يُمكن غلبتهم؛ وأنّ الأوبئة إذا كانت عامّة واعتبرناها من جنود الله فإنّها يُمكن التغلُّب عليها.

فإنّ هذا الاستدلال ليس دقيقاً؛ لأنّ التغلُّب لو حصل فسيكون على المرض وليس على أصل الداء والوباء؛ فقد يختلف وقد يتشكل بلونٍ آخر.

ثمّ إنّ المراد بعدم غلبة جند الله من حيث الحجة والبيان والنصرة في العاقبة كما قال تعالى: { وإن جندنا لهم الغالبون }.

مع هذا قد يُمنى جُند الله بالهزيمة كما يُمنى عبدالله بالهزيمة، وبل جرى أنّ بعض ما أرسله الله من آية وعلامة للناس قد جرى عليه التعطيل؛ فقد عُقرت ناقة الله وهي ناقة صالح في قوم ثمود، كما تهدم الكعبة وهي بيت الله في آخر الزمان من شخصٍ حبشي؛ فهذا كلّه من تقدير الله وتدبيره؛ وليس معناه أنّ ما يلتحق اسمه بالله تشريفاً يكونُ غالباً وما سواه مغلوب، وذلك لأنّ ما لحق اسمه بالشرف بالنسبة إلى الله ليس منه ذاتاً وصفة، بل لأنه خلقٌ من مخلوقاته فعيسى كلمة الله ومع ذلك همُّوا بقتله، وهو رسولٌ من رسل الله والله تعالى قال: { كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي}، وكانت غلبته لهم بإنجاء الله إيّاه.

وقد يُغلب المؤمنون لحكمةٍ يريدها الله تطيهراً له، أو تأديباً وتهذيباً لنفوسهم، ولكن لا يبقى الأمر كذلك لأنّ الله بيّن أنّ العاقبة للمتقين.

وبناء على ذلك؛ فإنّ فيروس كورونا وهو جندي من جنود الله يُمكن أن يقهر كثيراً من البشر ويودي ويُهلك عدداً من الناس من المؤمنين والفاجرين، ثم قد يكتشف الناس له لقاحاً ومصلاً ودواءً؛ ويكونُ ذلك التغلب على المرض وليس على أصل المرض وما قدّره الله، وهذا ليس معناه التغلب على جند الله بل هذا معناه تنازع المقدورات التي قدّرها الله وخلقها فيما بينها بقدر الله، والإنسان مأمور شرعاً أن يبحث عمّا فيه سر علاجه، ولو كان ذلك مقاوماً لجند الله لأنّ الله أراد من العبد منازعة القدر بالقدر، ولولا ذلك لما قام الناس بكثير من مقوّمات الحياة الطبيعية لحماية أنفسهم من الريح والمطر والعواصف والبراكين ولقالوا: إنها من قدر الله ومن جند الله وهي التي تغلبنا؛ فهذا لا يقول به عاقل.

4. القول بأن الأمراض والأوبئة وُصفت في القرآن والسنة بأنّها رجس فهذا حصر وتضييق للبحث، بل بعض الذي جاء وصفه بذلك هي أمراض القلوب من الشكوك والشبهات التي تعتريها كما قال تعالى في سورةِ براءة: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ}

ولو وسّع القائل بحثه لعلم أنّ المرض يكون رجزاً إذا كان على أهل الفجور، ولكنه للمؤمنين رحمة وطهور وقد ثبت في الحديث الصحيح أنّ النبي ﷺ دخل على أم السائب أو المسيب فقال: مالك يا أم السائب أو يا أم المسيب مالك تَزفزَفين أو تُزفزِفين – أي مالك تضطربين وتتحركين حركة شديدة وترتعدين – قالت: الحمى لا بارك الله فيها، فقال: لا تسبي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد.

وفي رواية أن النبي ﷺعاد أم العلاء، فقال: أبشري يا أم العلاء فإن مرض المسلم يذهب الله به خطاياه كما تذهب النار خبث الذهب والفضة .

وثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على أعرابي يعوده قال وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل على مريض يعوده فقال له لا بأس طهور إن شاء الله قال قلت طهور كلا بل هي حمى تفور أو تثور على شيخ كبير تزيره القبور فقال النبي صلى الله عليه وسلم فنعم إذا.

وثبت في صحيحي البخاري ومسلم عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فِي مَرَضِهِ، وَهُوَ يُوعَكُ وَعْكاً شَدِيداً، وَقُلْتُ: إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكاً شَدِيداً، قُلْتُ: إِنَّ ذَاكَ بِأَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قال: "أَجَلْ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أذىً إلا حَاتَّ اللهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ، كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ".

وفي هذا دلالة على أنّ المرض للمؤمن رحمة وعافية وطهور وخير، وأنّه على الكافر أو الفاجر عقوبة، وأنّه لعصاة المؤمنين تكفير للسيئات وحط للخطايا.

وفي خاتمة القول :فإنّه ما من شيء يحدث في هذا الكون إلا ولله تعالى المُحدِثِ له من تدبيره تقديرٌ؛ ومن تقديره تعسيرٌ ، ومن تعسيره تيسير، ومن تيسيره أن يُظهره في وقتٍ ويُخفيه في وقت؛ وله في ذلك حكمة بالغة؛ فهل تغني النُّذر؟ ومن النّذر جنده الذين ينتشرون في وقتٍ يأذن الله لهم بالانتشار وقد ينحسرون بوقتٍ يأمرهم الله بالانحسار، وهذا الكون الفسيح والفضاء المتسع كلّه لله، وما يخرج عنه شيءٌ فإن هو إلا حالاً ومآلاً إلى الله.

[لطف الله بعباده المؤمنين، ونجّى المستضعفين، واشدد اللهم وطأتك على المجرمين]

وكتبه

خبّاب بن مروان الحمد